٧

الحُب فى الدراسَات الموسُوعيّة

قد يبدو ضروريا أن نتوقف عند « الحب » وكيف أخذ مكانه أو تسرب فى الدراسات العامة التى لم تخصص لموضوعه ، على نحو ما فعل أمثال ابن داود وابن حزم وابن الجوزى والسراج ومن نحا نحوهم . ليس لأهمية تلك الدراسات كما وكيفا فحسب ، وفى ذلك ما يغنى من التبرير ، وإنما لتقاطر هذه الدراسات الموسوعية عبر زمان طويل ، بحيث تشكل فى اختلاف مواضع اهتمامها ما يمكن اعتباره دائرة معارف عن الحب وأخباره وشعاراته عند العرب ، ولابد أن نلتفت إلى المغزى الأساسى فى هذا الاهتمام الواضح بالحب فى كتب لم يكن هدفها الأول ، فإذا صح ما قلناه من قبل : إن الحب ظاهرة كل العصور ، فمن الصحيح – إذا ما تسامحنا فى التعميم – أنه ظاهرة كل المؤلفين ، يخوضون فيه بشكل مباشر ، أو يدورون حوله ، أو ينبهون إليه ، وقد يتوغلون فى محاذيره ، ثم يستعيذون بالله من سوء عواقبه !!

وجدير بالذكر هنا أن بعض أصحاب هذه الموسوعات التى تضمنت فصلا أو فصولا عن الحب ، يسبق – من الناحية الزمنية – أصحاب الدراسات المتخصصة ، فابن قتيبة – مثلا – سابق على ابن داود ، والجاحظ سابق عليهما معا ، وسنجد اقتباسات وأخبارا كثيرة قد تداولت بعد ذلك وانتشرت فى موسوعات أخرى أو فى غيرها من الكتب التى اختصت بالحب ، ومن ثم ينبغى ردها إلى مصدرها الأول ما أمكن ذلك ، غير أننا لم نهتم بهذه المسألة بشكل أساسى ، لأن الاقتباس فى كتاب عن الحب يأخذ مغزاه الخاص المستقل ، بصرف النظر عن أهمية مصدره .

وقد لا يستطيع بعض هذه الدراسات ، أو أكثر هذه الدراسات ، أن يضيف جديدا إذا ما قيس إلى الدراسات الأساسية فى الموضوع ، تلك التى أقمنا على مادتها الفصول السابقة جميعا ، باستثناء المدخل – الفصل الأول – الذى عرفنا فيه بمظانّ الاهتمام بالحب وقضاياه ، غير أنها تبقى ضرورية برغم ذلك ، ضرورة النسبى إلى المطلق ، والجزئى إلى العام ؛ لأن أكثر هذه الكتب الموسوعية التى اكتفت بتسجيل بعض الملامح عن الحب لم تكن تتطلع إلى النظرية أو الشمول ، وإنما الحب فيها بعض عواطف الإنسان ، ووجه من أوجه العلاقات الاجتماعية ، وخبر يروى من بين أخبار العرب ، وبهذه الخصائص أصبحت قادرة على التعبير عن الذوق العام والرأى الشائع فى أمور تتعلق بالحب وليست من صميم الفكرة عنه ، مثل مقاييس الجمال ، وطبائع الرجل المرغوب من النساء ، ونظرة المجتمع لحرية تزوج المرأة فى أحوال خاصة ، كأن تكون أما لرجل مشهور مثلا ، إلخ . وإذا اعتبرنا القرن العاشر الهجرى نهاية المرحلة التى نهتم

بها ، فإننا عبر هذه المساحة الزمنية الشاسعة يمكن أن نرصد العناصر الثابتة والمتغيرة فى الدراسات لتضفى على ظاهرة الحب ومفهومه دلالات تخصب وعينا بأهم العواطف البشرية .

إن الفرق بين ابن قتيبة والقلقشندى ، إذا صح أن أحدهما صاحب المحاولة الأولى ، والآخر صاحب المحاولة الأخيرة فى المجال الموسوعى ، ليس فرقا بين الاتجاه الثقافى للقرن الثالث والاتجاه الثقافى للقرن التاسع فحسب ، وإنما هو فرق بين ثقافة الرجلين ، ومنهج وغاية كل منهما فى كتابه ، ثم مدى إحساسه بأهمية الكلام عن الحب ، ودرجة استيعابه له . وسيفسر لنا هذا ، لم لا نجد موضوع الحب فى مثل هذه الدراسات الموسوعية يأخذ خطا صاعدا بالاهتمام دائما ، مثلما يمكن أن نراقب فى الكتابات التى وقفت عند موضوع الحب لا تعدوه . ومهما يكن من أمرنا مع هذه الطائفة من الكتب فإننا سنحاول أن نبرز منها جانبا مما لم تسبق الإشارة إليه ، باعتباره إضافة جديرة بالتنويه ، فإذا أشرنا إلى فكرة مطروقة فإنما نهدف إلى اكتشاف منابعها أو روافدها أو تأكيد أهميتها وانتشارها .

إن **ابن قتيبة** (٢٧٦ هـ) يمثل المحاولة الأولى فى هذا المجال ، والجزء العاشر من كتابه الموسوعى « عيون الأخبار » قد خصص بأجمعه تحت عنوان : « كتاب النساء : فى أخلاقهن وخلقهن وما يختار منهن وما يكره » ، وحيث يكون الحديث عن « النساء » فإنه سيتجاوز موضوع الحب ، وهذا أمر متوقع عند كافة أصحاب الموسوعات ، وإن يكن الحب وما يسبقه أو يترتب عليه قد شغل مساحة لا يستهان بها .

ويبدأ **ابن قتيبة** بأحاديث نبوية عن الإعفاف بالزواج ، ويروى كثيرا عن الأصمعى ، أقوالا عن أخلاق النساء وما يستحب من صفاتهن العضوية والنفسية ، ونجد له بعض الأقوال التى تدل على رؤية نافذة ، مثل : « اياكم والمذكرة فإنها لا تنجب » ، ويقصد بها المرأة التى تشبه بالذكور ، ومثل : « بنات العم أصبر ، والغرائب أنجب ، وما ضرب رؤوس الأبطال كابن أعجمية » والمعرفة بالقيم القبلية والاجتماعية ، وعلم الغدد وعلم الوراثة يؤكد صدق هذه الأقوال . ومن ملاحظاته أيضا قوله : « كان أهل المدينة يكرهون اتخاذ أمهات الأولاد ، حتى نشأ فيهم على بن الحسين والقاسم بن محمد بن أبى بكر ، وسالم بن عبد الله بن عمر . ففاقوا أهل المدينة فقها وورعًا ، فرغب الناس فى السرارى » . فهنا تحديد وتعليل لبعض أسباب التحول الاجتماعى والتوسع فى اقتناء الاماء للنسل وليس لمجرد الخدمة كما كان الحال غالبا من قبل ، وقد حدث التحول فى العصر الأموى ، أو ظهرت بواكيره ، وإن كان قد أخذ مداه الحق بعد ذلك حين صار الخلفاء أنفسهم من أبناء الاماء . ويؤكد هذا ما ذكر ابن قتيبة بعد قليل أن عقيل بن علفة كان غيورا[1] ، فخطب عبد الملك بن مروان ابنته على أحد بنيه ، وكانت لعقيل إليه حوائج ،

(١) عيون الأخبار جـ ١٠ ص ٨ وص ٣٩ ، وقد جاء هذا القول فى العقد الفريد وأشرنا إليه من قبل .

فقال له : إن كنت لابد فاعلا فجنبنى هجناءك !! ومع هذه العصبية الواضحة للعرق العربى الخالص ، لا نعتقد أن الأمر استمر على ذلك ، ليس لنبوغ هذه الطائفة من أبناء الاماء فحسب ، كما زعم ابن قتيبة ، وقد ظل العرب فترة من الزمن يعتبرون الاتجاه نحو الفقه والتصوف سلوكا أعجميا خاصا ، واتجه إعتزازهم نحو الشعر – والرجز بصفة خاصة – واللغة . ونفصل ذلك أن نضيف إلى « اغراء النبوغ » اغراء آخر يعبر عنه هذا القول الذى يرويه ابن قتيبة عن رجل من أبناء المهاجرين ، حين يقول : أبناء هذه الأعاجم كأنهم نقبوا الجنة وخرجوا منها ، وأولادنا كأنهم مساجر التنانير !! فقد كان « تحسين الصورة » بمثابة اغراء آخر ، أو لنقل إن معنى الجمال الحسّى كان يتبدل من الاحتكام إلى الملامح العربية الخالصة ، إلى التطلع لملامح أخرى أصبحت تنافسها وتتفوق عليها عند أصحاب الذوق الجديد .

وتحت عنوان « الأكفاء من الرجال » يذكر ابن قتيبة أمثلة عديدة ، شعرا ونثرا ، تؤكد حرص العربى والعربية على الكفاءة فى الزواج ، والإحساس بالمهانة والمعرة إذا ما اضطر إلى النزول عن مستوى قبيلته لأمر من الأمور ، فضلا عن مجاوزة الدم العربى إلى سلالة أجنبية ، أو إلى من لحقه أو لحق آباءه الرق فى عصر سابق . وقد ذكر أن إبراهيم بن النعمان بن بشير زوّج ابنته يحيى بن أبى حفصة مولى عثمان بن عفان ، على عشرين ألف درهم ، فعيره بعضهم قائلا :

لعمرى لقد جللت نفسك خزية ... وخالفت فعل الأكثرين الأكارم
ولو كان جـداك اللذان تتابعـا ... ببدر لمـا راما صنيع الألائم[1]

ومن الطريف حقا أن إبراهيم قد احتج بضخامة المهر ، وكأنه يتحدى به قدرة الشرفاء الفقراء ، ولكنه – وهو ابن الصحابى الجليل – يشعر بأن هذا لا يكفى فى الدفاع عن مثله ، فيذكر بأنه ليس أول من فعل ذلك :

فما تركت عشـرون ألفا لقـائل ... مقـالا فلا تحفـل مقـالة لائم
فإن أك قد زوجت مولى فقد مضت ... به سنّة قبـلى وحـب الدراهـم

ولعله يشير إلى ترويج الرسول ﷺ زيد بن حارثة ، وهو مولى ، من زينب بنت جحش ، وهى الشريفة القرشية . وهذا شاعر آخر لعله يعبر فى هجاء من يفعل ذلك عن نفسية المرأة العربية ومشاعرها تجاه وليها ، حين يزوجها كرها ممن هو أقل منزلة منها :

للّـه درّ جيادٍ أنت سائسها ... برذنتها وبها التحجيل والغرر

(١) عيون الأخبار جـ ١٠ ص ١٦ والبيتان من هامش المحقق .

فهذه المهرة العربية الحسناء ، يظلمها سائسها ، أو وليها ، فيدفع بها إلى مستوى الحمارة ، وليس أظلم ممن يعامل الجياد معاملة الحمير أو البغال !!

وهذا خبر يرويه أبو اليقظان عن أربعة من فضلاء الصحابة ، يتقدمون لامرأة ، فتختار ، ولعلها بذلك تحدد مواضع التفضيل ، التى تقيس إليها المرأة العربية حين يترك لها الأمر ، ويستوى الفضل وكرم الأصل ، فلا يبقى إلاّ السلوك الخاص . قال :

خطب عمر بن الخطاب أم أبان بنت عتبة بن ربيعة ، بعد أن مات عنها يزيد ابن أبى سفيان ، فقالت : لا يدخل إلاّ عابسا ولا يخرج إلاّ عابسا ، يغلق أبوابه ويقل خيره ، ثم خطبها الزبير ، فقالت : يد له على قرونى ، ويد له فى السوط . وخطبها على فقالت : ليس للنساء من حظ إلاّ أن يقعد بين شعبهن الأربع لا يصبن منه غيره . وخطبها طلحة فأجابت فتزوجها ، فدخل عليها على بن أبى طالب فقال لها : رددت من رددت منا ، وتزوجت ابن بنت الحضرمى ! فقالت : القضاءوالقدر ؛ فقال : أما انك تزوجت أجملنا مرآة وأجودنا كفا وأكثرنا خيرا على أهله !! فكأنه بذلك حدد الأسباب التى فضلت بها هذه المرأة رجلا على آخر ينازعه منزلته .

أما الصفات الحسية فإنها تدور حول المرأة أكثر من دورانها حول الرجل ، ولم يهملوا الصفات النفسية ، بل أخذت الصدارة فى كلام العقلاء والمجربين ، الذين لم يهملوا الجانب العضوى أيضا . وقد روى بعض ولد الزبرقان بن بدر أنه كان يقول : أحب كنائنى إلىّ الذليلة فى نفسها ، العزيزة فى رهطها ، البرزة الحيية التى فى بطنها غلام ويتبعها غلام ، ويردد خالد بن صفوان الصفات نفسها مضيفا إليها أن تكون حصانا من جارها ، ماجنة على زوجها . أما الصفات الحسية فيجملها بعضهم بأن تكون بيضاء البياض ، سوداء السواد ، طويلة الطول ، قصيرة القصر[1] ، ويدخل بعض آخر فى التفصيل والتحديد ، فيقول ابن شبرمة : ولا رأيت لباسا على امرأة أزين من شحم ، وقال الحجاج : لا يحسن نحر المرأة حتى يعظم ثدياها .وقال المرار العدوى :

---

(١) وقد حدث أن أحب عربى فتاة نصرانية زرقاء العينين ، فراح يدافع عن هذا التعلق الذى لا يرضى ذوق الجماعة فى لون العيون المرغوبة :

يقولـــون نصـــرانية أم خـالد ... فقلت دعوهـــا كل نفس ودينها
فـإن تـلك نصـرانية أم خـــالد ... فقد صورت فى صورة لا تشينها
أحبـك أن قالـــوا بعينك زرقة ... كذاك عناق الطير زرقا عيونهـــا

عيون الأخبار جـ ١٠ ص ٥٨ - فتأمل هذا الشعر ودلالته ، وليست النصرانية هى الأمر الجديد فقد كانت هناك قبائل نصرانية فى الجاهلية والإسلام ، ولكن الجديد كان التحول من التشاؤم بزرق العيون إلى الإعجاب بها ، ولعل العرب كرهوا العيون الزرقاء على البشرة السمراء أو السوداء ، أما حين جاءت مع البياض والشقرة فإن الرأى قد اختلف ، وقد بشر هذا القائل بالرأى الجديد .

صلتة الخد طـويل جيدها ضخمة الثدى ولما ينكسر

قال على بن أبى طالب : لا تحسن المرأة حتى تروى الرضيع ، وتدفىء الضجيع . وينسب إليه قوله أيضا : من تزوج سمراء فطلقها فعلىّ مهرها !!

وفى « باب القبح والدمامة » يسخر ابن قتيبة سخرية مرة من الجمال الزائف الذى تحاول أن تضفيه أدوات التجميل كذبا فيعجز عن اتمام الخديعة ، فيروى عن أبى زيد الكلابى ، هذا التعليق الشعرى الطريف ، قال :

قدم رجل منا البصرة فتزوج امرأة ، فلما دخل بها وأرخيت الستور وأغلقت الأبواب عليه ، ضجر الأعرابى وطالت ليلته ، حتى إذا أصبح وأراد الخروج منع من ذلك وقيل له : لا ينبغى لك أن تخرج إلا بعد سبعة أيام ، فقال :

أقول وقـد شدوا عليها حجابها ألا حبذا الأرواح والبلد القفـر
ألا حبذا سيفى ورحـلى ونمرقى ولا حبذا منها الوشاحان والشذر
أتونى بهـا قبل المحـاق بليلة فكان محاقـا كله ذلك الشـهر
وما غرنى إلاّ خضـاب بكفها وكحل بعينيها وأثوابهـا الصفر
تسائلنى عن نفسها هـل أحبها فقلت : ألا لا ، والذى أمره الأمر
تفوح رياح المسك والعطر عندها وأشـهد عند الله ما ينفع العطر

ويشكو آخر جفاف عود امرأته ، فيجعل منها مجرد عود من الحديد لارىَّ فيه ولا بضاضة[1] .

ويمضى ابن قتيبة فى أثر الجاحظ الذى سبق إلى بعض الفكاهات الجنسية الصريحة ، ولكنه يتخلف عنه حين يتعرض لبعض القضايا الجادة مثل : حلّ النظر وحرمته ، وسياسة النساء ومعاشرتهن ، والقيان والغناء ، والقيادة ، والزنا ، ومساوىء النساء ، فمع اهتمام الجاحظ برواية الأخبار والقصص فإن رأيه واضح محدد ، ودفاعه الحار عن إباحة النظر أوضح من أن ننبه إليه ، أما ابن قتيبة فإنه يكتفى بتجميع الأخبار التى قد تتعارض كثيرا ، ويترك لقارئه أن يستشف منها ما يريد . على أنه يختم هذا الكتاب بأبواب عن العشاق ، تقوم على مادة قصصية ، لا تخرج فى محتواها أو شكلها عن قصص العشق التى سنتعرف عليها بعد حين .

أما ابن عبد ربه (٣٢٨ هـ) فى عقده الفريد فإنه يضع كتاب المرجانة الثانية فى النساء وصفاتهن ، وعليه بصدق القول الذى أجمل الرأى فى مادة العقد بعامة : (هذه بضاعتنا ردت إلينا) ، وهو ما تجنبه عن عمد مواطنه الأندلسى ابن حزم ، الذى جاء بعده بأكثر من قرن ،

(١) الأبيات فى عيون الأخبار جـ ١٠ ص ٢٣ .

ولا نستبعد أنه أفاد من تجربته ، أو من خطأ تجربته ، فليست مادة هذا الباب أو الكتاب مشرقية فحسب ، ولكنها عديمة الشخصية – إن صح التعبير – مجرد أخبار نجد نسبة عالية منها فى عيون الأخبار ، وفى كتابات الجاحظ وغيرهما ، وهو كابن قتيبة يتحدث عن الزواج أكثر مما يتحدث عن الحب ، ويأخذ « الرجل » فى كتابته مكانا مرموقا ، وإن يكن عنوان الباب عن « النساء » ، غير أنه يضيف فقرة عن من طلق امرأته وتبعتها نفسه ، وفقرة يروى فيها أقوالا وأبياتا للهجناء من العرب يدافعون فيها عن أنفسهم .

ويمدنا المسعودى (٣٤٦ هـ) بإضافات دالة فى مجالى القول بتأثير أبراج الكواكب فى إيجاد الوفاق والحب بين المواليد ، والقول باتفاق الطبائع لاتفاق الأخلاط ، فضلا عن سيل لا ينقطع من الأخبار والقصص الأسطورية عن عمليق ، وتأبط شرا عاشق الغول ، والحرب بين الضيزن وسابور وكيف خانت ابنة الضيزن أباها حين عشقت سابور ، وقد رويت هذه القصة بعد أن أخذ ملك السريانية مكان الضيزن فى تلك الروايات . ويقول المسعودى فى نهاية روايته : « والشعر فى هذه القصة كثير » ، والوصف بالقصة لا يشير إلى الوضع أو الابتداع ، ولكن الإشارة إلى كثرة الشعر تشير إلى دور الشعر فى تنمية الأخبار والأساطير وتحويلها إلى قصص محبوكة مؤثرة ، وبخاصة إذا كانت تتصل بالعواطف البشرية ، وبمغامرات العشاق بوجه خاص[1] .

ويحتل **الأغانى** منزلة عالية بالنسبة لموضوع الحب ، على الرغم من أنه لم يتوجه إليه قصدا ، فقد بنى الأصفهانى (٣٥٦ هـ) مادة كتابه على أساس من المائة الصوت المختارة ، وجاءت المادة الغزيرة استطرادا من هذه البداية ، فكان بهذا أول موسوعة شاملة فى الحب على المستوى التطبيقى أو السلوكى ، إذ اهتم بالعشاق ، وشعراء الحب ، والقيان ، والظرفاء وكل من يمت إليه بسبب . ويكفى أن نعرف أنه ترجم للشعراء (حسب تسلسلهم فى أجزاء الكتاب) : العرجى ، ومجنون بنى عامر ، وبشار ، وأبى العتاهية ، وأبى دهبل ، وجميل بثينة ، وعنترة ، والعباس بن الأحنف ، وامرىء القيس ، وكثير ، وقيس بن ذريح ، وعمر بن أبى ربيعة ، وتوبة بن الحمير ، وعبد الصمد بن المعذل ، وديك الجن ، والخنساء ، وعروة بن أذينة ، ومن المغنين : معبد ، وسريج ، والغريض ، ومن القيان :جميلة أستاذة معبد وابن عائشة ، وحبابة وسلامة ، ثم هؤلاء جميعا ، فضلا عن فريدة ، وذات الخال ، وفوز وعزة الميلاء ورملة ودنانير ، وغيرهن من صاحبات القصص والمغامرة مع الشعراء وغيرهم ، ومن شريفات قريش وظريفاتها سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة ، وغيرهما ، وإن كتابا جمع بين هؤلاء ، وأحصى أخبارهم واستوفى روايات القدماء حولهم لهو جدير بأن يشبع موضوع الحب فى كل مناحيه المختلفة ، وبكل درجاته وألوانه ، وفى عصوره من الجاهلية إلى عصر تأليف هذا الكتاب .

---

(١) مروج الذهب ومعادن الجوهر جـ ٢ ص ١٣٦ وما بعدها .

وقد ينبغي أن نقرأ الأغاني بحذر وحاسة يقظة ، فقد يحمل الخبر البريء المظهر دلالات ومعاني كثيرة ، وبخاصة أن الأصفهاني يتجاوز طاقة كل من سبقه من أصحاب تراجم الأدباء والمعنيّين بأخبارهم ، بأنه يستقصي أخبار هؤلاء الشعراء وفيها من التداخل والتضارب ما لا يخفى ، ويكفي أن نشير إلى ما يرويه عن ابن دأب والأصمعي والجاحظ فيما يخص قيس بن الملوح ، وكيف تعارضت أخباره ، فمنها ما يثبته بالاسم والصفة ، ومنها ما يثبته بالصفة دون الاسم ، ومنها ما ينكره اسما وصفة ، ومنها ما يعممه فلا يخصه بالاسم وإن تكررت الصفة ، ومنها ما يصف كل ما تعلق به بالوضع والنحل وأنه من فعل الرواة[1] ، على أن القراءة المتفتحة المتأنية قد تعطي دلالات اجتماعية ونفسية على قدر من الأهمية بالنسبة للحب وما يحوطه من أمور وتقاليد وحيل ، ولنقرأ هذا الخبر – على سبيل المثال – وقد جاء في سياق « أخبار علوية ونسبه[2] » إذ يروي عن محمد بن الأبزاري ، أنه قال :

كنا عند زلبهزة النخاس ، وكانت عنده جارية يقال لها خشف ابتاعها من علّوية ، وذلك في شهر رمضان ، ومعنا رجل هاشمي من ولد عبد الصمد بن علي يقال له عبد الصمد ، وإبراهيم بن عمر بن نهبون وكان يحبها ، فأعطى بها زلبهزة أربعة آلاف دينار فلم يبعها منه ، وبقيت معه حتى توفيت ، فغنتنا أصواتا كان فيها :

أشارت بطرف العين خيفة أهلها إشـــارة محزون ولـــــم تتكلم

قال : فلما وثبنا للانصراف قال لنا وقد اشتد الحر : أقيموا عندي . فوجهت غلاما معي وأعطيته دينارا ، وقلت له : ابتع فراريج بعشرة دراهم ، وثلجا بخمسة دراهم ، وعجل . فجاء بذلك فدفعه إلى زلبهزة وأمره بإصلاح الفراريج ألوانا ، وكتبت إلى علوية فعرفته خبرنا ، فجاءنا وأقام ، وأفطرنا عند زلبهزة ، وشرب منا من كان يستجيز الشراب ، وغنى علوية لحنا ذكر أنه لابن سريج :

يا هند إن الناس قد أفسدوا ودّك حتى عزني المطلب

قال : وقام عبد الصمد الهاشمي ليبول ، فقال علوية : كل شيء قد عرفت معناه ، أما أنت فصديق الجماعة ،وهذا يتعشق هذه ، وهذا مولاها ، وأنا ربيتها وعلمتها ، وهذا الهاشمي ايش معناه ؟ فقلت لهم : دعوني أحكّه وآخذ لزلبهزة منه شيئا . فقال : لا والله ما أريد . فقلت له : أنت أحمق ، آخذ منه شيئا لا يستحي القاضي من أخذه . فقال : إن كان هكذا فنعم .

(١) تفصيل ذلك في الأغاني جـ ٢ ص ١ - ٩٥ .
(٢) الأغاني جـ ١١ ص ٣٥٣ - ٣٥٥ .

فقلت له : إذا جاء عبد الصمد فقل لى : ما فعل الآجرّ الذى وعدتنى به ، فإن حائطى قد مال وأخاف أن يقع ، ودعنى والقصة .

فلما جاء الهاشمى قال لى زلبهزة ما أمرته به ، فقلت : ليس عندى آجرّ ، ولكن اصبر حتى أطلب لك من بعض أصدقائى ، وجعلت أنظر إلى الهاشمى نظر متعرض به . قال الهاشمى : يا غلام ، دواة ورقعة . فأحضر ذلك . فكتب له بعشرة آلاف آجرة إلى عامل له ، وشربنا حتى السحر وانصرفنا . فجئت برقعته إلى الآجرى ، ثم قلت : بكم تبيع الآجرّ ؟ فقال : بسبعة وعشرين درهما الألف . قلت : فبكم تشتريه منى ؟ قال : بنقصان ثلاث دراهم فى الألف . فقلت : فهات . فأخذت منه مائتين وأربعين درهما ، واشتريت منها نبيذا وفاكهة وثلجا ودجاجا بأربعين درهما ، وأعطيت زلبهزة مائتى درهم وعرفته الخبر ، ودعونا علوية والهاشمى ، وأقمنا عند زلبهزة ليلتنا الثانية . فقال علوية : نعم ! الآن صار للهاشمى عندكم موضع ومعنى ...

فلو أن الخبر – القصة ، ذكر عن بعض أبناء « الوجهاء » فى أيامنا هذه ما أنكرنا منه شيئا ، على الرغم من انتهاء النخاسة وانقضاء عصر القيان . فتأمل ما شئت ما يمثله بيت النخاس ، وكيف يصنع من المغنية الحسناء أحبولة ، وتأمل أطراف هذا التجمع فى يوم من أيام رمضان ، والشرب حتى السحر ، وتساؤل علوية عن هذا الفتى الذى لا يحسن غناء ولا سماعا وليست له وظيفة معروفة ، وكيف اقتنع فى النهاية أنه « ممول » المجموعة وصاحب نفقتها ، ويكفيه ما ينال من ظرف المجلس ومداعبة الجلساء . ومن نافلة القول أن نقول إن الأصفهانى لم يضع رأيه الخاص إلاّ فى النادر ، وفى امور تتعلق بالرواية ، كأن يشكك فى نسبة بيت أو صدق خبر ، أما قضايا الفكر والرأى ، فإنها لا تتجاوز بعض التحليل لأبيات من الشعر ، ومن ثم تبقى الفائدة الجليلة فى كتاب الأغانى بالنسبة لموضوع الحب – محصورة فى تلك التراجم العديدة للمحبين والعشاق والقيان والمغنين ممن أشرنا إليهم آنفا[1] .

وفى « **زهر الآداب** » للحصرى القيروانى (٤٥٣ هـ) ، نجد الحرص نفسه على إيراد أخبار العشاق والمستطرف من أشعارهم ، على أنه صان كتابه – كما يقول – عن المجون ، وبهذا جاءت الأخبار والأشعار عنده مبتورة ، ومثال ذلك قصة عُلَيَّة بنت المهدى – أخت الرشيد – وشغفها بفتاها « رشأ » ثم ما قيل عن اغتيال الرشيد له ، ثم شغفها بفتاها « طل » وتحريم الرشيد عليها أن تذكر اسمه ، ثم تحايلها فى قراءة (فإن لم يصبها وابل فطل) . وقد

---

(١) وقد اعتمد كثير من المتأخرين على مادة الأغانى ، انظر مثلا عن القيان وأخبارهم : المرقصات والمطربات لمؤلفه نور الدين على بن الوزير ابى عمران (توفى ٦٧٣ هـ) وفيه طائفة من أخبار ذات الخال وعبد الله بن العجلان وهند وغيرهم .

تجاوزت القصة هذا المدى فى الأغانى[1] ، فضلا عن أنها احتفظت بعلية حية حتى شهدت المأمون ، بل روى الأصفهانى أنها ماتت بسبب أن المأمون عانقها وراح يقبل رأسها وكانت مغطاة الوجه ، فشرقت ، ومرضت مرضا قصيرا ماتت فيه .

وقد اهتم الحصرى بأخبار الصوفية وعشقهم النظر إلى الغلمان ، وأبرز الأقوال التى تنكر عليهم ذلك ، كما يروى من أقوال السابقين ما يؤكد الإيمان بقدرية الهوى وبعده عن الاختيار ، فالإنسان مسوق إليه وإن لم يكن يؤمن بأنه بلاء ، لا مفر من الصبر عليه . ويضيف الحصرى نمطا طريفا من القول له دلالته الاجتماعية والنفسية ، فبعد تردد واستعاذة يسجل نموذجا لما ينبغى أن يقال لمن تزوجت أمه ، وهو ينظر إلى هذا التصرف على أنه كارثة تستوجب العزاء ، ومن ثم كان اتجاه الكلام مواساة صريحة ، وفى رأيه أن النموذج يكون على هذا النحو : « أنت بفضل الله عليك وإحسان تبصيره إياك من أهل الدين ، وخلوص اليقين ، فكما لا تتبع الشهوة فى محظور تبيحه ، فكذا لا تتبع الأنفة فى مباح تحظره ؛ وقد اتصل بنا ما اختاره الله والقضاءلذات الحق عليك ، المنسوبة - بعد نسبك إليها - إليك ، مما كرهه إياؤك الدنيوى لك ولها ، ورضيه الحلال الدينى له ولها ، فنحن نعزيك عن فائت محبوبك ، ونهنئك فى الخيرة فى اختيار القدر لك ، ونسأل الله ان يجعلها أبدا معك فيما رضيت وكرهت ، وأبيت وأتيت » .

ومع كراهة الحصرى للكتابة فى مثل هذا الغرض الذى يحط من قدر الرجل وينال من أنفته ، فإنه يسجل بمزيد من الإعجاب رسالة من أبى الفضل بن العميد لمن تزوجت أمه ، وفى النص المقترح ، كما فى رسالة ابن العميد يظهر زواج الأم فى صورة الكارثة الحقيقية والبلاء النازل ، لا يخفف منهما أن الشرع يبيح لهذه الأم أن تتزوج ، ويقرن الإنكار على ما فعلت بوأد البنات ، فكلاهما فعلان من أفعال الجاهلية ، دافعهما الأنفة والحمية ، بل ان ابن العميد يختم رسالته بالدعاء لمن ابتلى بزواج أمه بأن يعوضه « من أسرة فرشها أعواد نعشها » !![2] .

ويلتقى الراغب الأصبهانى (٥٠٢ هـ) فى « محاضرات الأدباء » منهجيا بابن عبد ربه ، فى العقد الفريد ، حيث الاهتمام باقتباس المعانى الأدبية ، وتسجيل النصوص الشعرية تحت عناوين جزئية ، تتقاطر فى صدر فقرات قصيرة . هناك بعض اللمسات السريعة فى ثنايا المجلد الثانى ، مثل ما كتبه تحت عنوان : « المحبوب فى الناس » - « النهى عن فرط الحب والبغض » - إلى أن نصل إلى الحد الثالث عشر ، وهو باب طويل[3] وضع تحت عنوان « فى الغزل وما يتعلق به » ، ويبدأ بماهية العشق ، ويردد فيه أقوال بعض الفلاسفة ، ولكنه يضع عنوانا يعتبر جديدا ، وبخاصة

(١) الأغانى جـ ١٠ ص ١٦٢ وما بعدها .
(٢) زهر الآداب جـ ٢ ص ٤٠٠ - ٤٠٢ .
(٣) محاضرات الأدباء من ص ٣٩ إلى ص ١٣٣ .

أنه سابق على ابن الجوزى ، إذ يتكلم عن الهوى : « ما جاء فى أوصاف الهوى وأحوال العشاق » ثم يبحث فى أحوال فروع الهوى وأنواعه ، أما الدراسات السابقة عليه فكانت تتجنب كلمة « الهوى » وتفضل فى مكانها « المحبة » فإذا أرادت أن تجعل من المحبة شعورا إنسانيا مقرونا أو دافعا لبعض الشهوات وضعت له اسم العشق ، حتى ليمكن أن نزعم أن القدماء كانوا يتجنبون هذه الكلمة عن عمد ، ربما لما تعنيه من الانحراف ، والانجراف ، وفقدان التمييز ، وربما لما تعنيه من اغلاق العقل وضياع الإرادة ، وهذا كله لا يتعارض مع المحبة ، وقد يوجد منه شىء مع العشق . أما الراغب الأصبهانى فقد قسم مراحل الهوى بما هو تقسيم لمراحل المحبة دون تفرقة تذكر ، وعلى هذا يكون باستطاعتنا أن نقول إنه أول من استعمل كلمة الهوى فى هذا المجال بالمعنى العصرى الذى نستعملها له اليوم ، وهو المرادف للحب ، أو الحب الشديد .

وآثار ابن داود واضحة هنا تماما ، بل يبدو أثر مقدمة ابن داود حين يتطرق الراغب الأصبهانى إلى « ذكر من عشق من الكبار » فيذكر عشق داود عليه السلام لامرأة أوريا وما كان من تحاكم بينهما ، مما أشار إليه القرآن من قصة التسع والتسعين نعجة ، ولابد أن يعرج إلى يوسف وامرأة العزيز التى تعتبر القاسم المشترك فى كل ما يكتب عن الحب أو عن المرأة أو الاشتهاء أو العفة . ويستمر فى طريق ابن داود حين يرى أن « التذلل للحبيب من شيم الأريب » وهذه العبارة بنصها عنوان الفصل السادس من النصف الأول من الزهرة ، وان وضع الراغب كلمة « الأريب » فى موضع « الأديب » التى فضلها ابن داود ، ولعله فارق بين شعورين تجاه الظاهرة الواحدة .

وإذا تجاوزنا العلاقة النصية وجدنا الأثر العام واضحا فى نظرته إلى الحب ومختاراته الشعرية التى يدعم بها فكرته ، « كاستطابة الأذى فى معاناة الهوى » ، وما اقتبس تحت هذا العنوان من أشعار المجنون والمتنبى وغيرهما ، وهذا أكثر وضوحا فى حال الكمال التى يطالب بها المحب ، « وقال رجل لامرأة : قد أخذت قلبى فلست استحسن سواك ! فقالت : إن لى أختا هى أحسن منى ، ها هى خلفى ! فالتفت الرجل ، فقالت : يا كذاب ، تدعى هوانا وفيك فضل لسوانا[1] ؟! ومثل هذه الأخبار أو القصص الموجزة مصنوعة لتأكيد مفهوم الحب ، وأنه حالة من امتلاء الإحساس والشعور بشخص واحد لا يصح أن يشاركه أحد غيره ، ولهذا يوصف مثل من وقع فى هذا الخطأ بأنه غير محب ، وليس بالغباء أو نقصان الإدراك ، أو انعدام اللباقة والغفلة .

ويكاد الراغب يمضى فى أثر ابن داود مع اختلاف العنوان فى رصد علامات الحب ، فهناك من هيجه الحمام بتغريده ، والتذكر بالنار الموقدة ، وبالبرق ، وبهبوب الريح ، والاختلاج العارض ، واستطابة التوديع طمعا فى لقاء الحبيب ، وعذر تارك توديع محبوبه ، وحنين الإبل .

---

(١) سبقت نسبة هذا الخبر للأصمعى ، وقالت له : ابتعد عنى يا بطال .

والإعراض عن الحبيب خشية الرقيب إلخ . ويضيف إلى علامات الحب استطابة المرض والسهر لكونهما من الحبيب ، ومراقبة النجوم ، والإحساس بطول الليل ، والنهار ، إلخ ، ويمضى إلى بعض المعانى الدقيقة التى سبق إليها ابن داود ، مثل التضليل بإخفاء المحبوب عن الناس ، والتكتم بإظهار الهوى فى غير المحبوب ، وكتمان الهوى عن المحبوب . إلخ .

ومن المؤسف حقا أن كتاب الموسوعات – ومنهم الراغب ، وكما أشرنا آنفا – لا يكشفون عن رأيهم ، وإنما هى مختارات يقدمون لها بعبارات لا تغنى أو يضعونها دون ابداء قول . ولعلهم بهذا قد قدموا فائدة أخرى وهى الكشف عن الظاهرة فى مناحيها المختلفة ، وتقلباتها حسب الطبائع والبيئات والأخلاق ، فكلما ذكر الحب فى حال من التمام والثبات ، فإنه لا يلبث أن يقتبس أشعارا تعبر عن شخصية الدون جوان ، رجل المغامرة والاقتحام وراء لذته الآنية ، لا يعبأ بخلق أو آداب اجتماعية ، أو خطر أو تعارض بين علاقاته المتشابكة .

فيختار تحت عنوان : « من ذكر كثرة من يهواهم » قول ابن أبى طاهر :

عدمت فؤادى من فؤاد فما أشقى وأكثر من يهوى وأعظم ما يلقى
فلو كان يهوى واحـدا لعـذرته ولكنه من جهله يعشـق الخلقا
ثمـانون لى فى كل يوم أحبهم وما فى فؤادى واحـد منهم يبقى

وقول الآخر :

قالوا : بغانية واصلت غانية ؟ فقلت حزم وورود المـاء بالماء

وفى مكان آخر يقتبس أشعارًا تضاد العاطفة النقية السامية التى دلت عليها مختاراته السابقة ، فيذكر تحت عنوان : « استحسان التقاءالمتحابين » قول مسلم العنبرى :

لا شىء أحسن فى الدنيا وساكنها من وامق قد خلا فردا بموموق

وقول إبراهيم الصولى فى المعانقة :

سـاعدنا الدهـر فبتنا معا نحمل ما نجنى على السكر
فكنت كالمـاء لـه قارعا وكان فى الرقـة كالخمر

ويضيف الراغب فى اختياراته بعض اللمسات الدقيقة ، ففى اقتباس أشعار عن « المدعى حسقا من غير عيان » ، يذكر بيتى بشار المشهورين : « يا قوم أذنى لبعض الحى عاشقة » ، ثم يتبعهما بقول ابن الرومى :

هويتك ناشـئا قبل التلاقى هوى حدثا تكهل باكتهالى
وكـل مـودة قبل اختيار فتلك هوى طبائع لا انتحال

وإنى لأظن أن هذين البيتين قد عبرا – فى حدود صياغتهما – عن أهم عناصر نظرية الحب عند العرب ، ففيهما المعنى الغيبى ، وفيهما التلقائية ، وفيهما الفجاءة ، وفيهما الاستمرار واحتضان العاطفة حتى الاكتهال ، وفيهما التجاوب مع الطبع دون اقحام الشعور الموجه أو الانتقاء عن عمد .

أما النويرى (٧٣٣ هـ) فإنه يبدأ فى كتابه « نهاية الأرب فى فنون الأدب » خطا جديدا فى معالجة قضايا الحب ومتعلقاته ، وهو الجانب الجنسى فيما يتطلب من قوة الجسم ، فيكتب بابا مستفيضا حول كل ما يجمل الجسم ويحفظ حيويته ويمد فى قدرته العامة ، ويخصص الجزء الأكبر من هذا الباب فيما يتعلق بأمور العلاقة الجنسية بشكل مباشر[1] ، فيقدم من وصفات أنواع الأشربة والمربى والسفوف والحقن والأدهنة والتحاميل والضمادات والمسوحات ما يتعلق بالقوة ، أو يعفى من الضعف ، أو يزيد فى اللذة ، معتمدا على ما نعده فى أيامنا من بضاعة العطار ، وكان فى الزمان الغابر دواء الطبيب وبضاعة الصيدلى .

ويربط الطب القديم ، كما يظهر فى هذا الباب مرتبطا بهذا المجال المحدد ، بين الحيوية العامة والطاقة الجنسية ، ولهذا يقدم وصفات لتحسين الهضم وتقوية المعدة وتلطيف الجسم .

والقاسم المشترك فى أكثر العلاجات المقترحة : عسل النحل منزوع الرغوة ، والدار صينى ، والقرفة ، والبصل واللوبياء ، والحمص ، والزنجبيل ، وماء الجرجير ، والقرنفل والمصطكاء ، كما يظهر خصى الثعلب وخصى الديك ، ومخ الغنم والبقر والديكة فى بعض أنواع المريسة ، وتظهر بعض النباتات المخدرة المعروفة بهذه الصفة حتى الآن ، مثل نبات الخشخاش والخولنجان والقرطم ، وهى مصدر الحشيش والأفيون ، ويظهر العود الهندى والكافور والزعفران فى بعض آخر .

وقد جرى النويرى على أن يقدم أكثر من وصفة للأمر الواحد ، لأسباب نص عليها ، فحين يصف بعض الحقن والحمولات ، يقول : إنما جعلناها لمن عجز عن تناول ما قدمناه من الأدوية إما لكثرة حرارتها ، أو كراهية لمذاقها ، أو لإنحرافها لمزاج المستعمل لها . وفى مواضع أخرى يقدم وصفة ، ويسميها « الملوكية » ويظهر ان عناصرها نادرة غالية الثمن ، ومن ثم يقدم بديلا شعبيا يعتمد على مواد فى متناول العامة ، وبسعر زهيد ، وهكذا كان النويرى ، فى تجميعه لمادة هذا الباب ، يضع فى اعتباره اختلاف طبائع الأجسام وقدرة تحمل النفقات فى نفس الوقت .

ويظهر أثر الجاحظ والوشاء معا فيما كتبه الغزولى (٨١٥ هـ) فى نهاية الجزء الأول من كتابه « مطالع البدور فى منازل السرور » ، إذ يعقد ستة فصول عن : الغلمان – الجوارى

(١) نهاية الأرب جـ ١٢ ص ١٤٢ – ١٩٧ .

ذوات الألحان – وما يتعلق بكتابة المتظرفات منهن على آلاتهن – والمولدات من الجوارى وغيرهن – والباءة – وما يترتب على كون جمال المرأة وحسن تناسب أعضائها هو الداعى الرجل إلى وطئها[1] . وهذه عناوين مكررة ، نصادفها فى أكثر من كتاب مما سبق أن تعرفنا ، ولكنه يضيف أحيانا أمورا لم يسبق إليها صراحة ، أو لم تكتب وتعالج بدرجة الوضوح والمباشرة التى اعتمدها .

أما **القلقشندى** (٨٢١ هـ) وهو آخر من نعنى بهم فى هذا الفصل ، فإنه فى الجزء الثانى من « صبح الأعشى فى صناعة الانشا » يهتم ببعض الأمور التى يمكن أن يسترشد بها فى اكتشاف الذوق العربى بالنسبة لمقاييس الجمال عند الرجل والمرأة ، كما يضع بعض الصفات الأخلاقية المحبوبة فى الرجال أو فى النساء[2] . فما يشترك فيه الرجال والنساء من الحسن : اللون ، ويستحسن من الألوان البياض ، وأحسن البياض ما كان مشربا بحمرة ، ويذكر من أخبار الرسول ما يشير إلى أن هذا كان لونه ، وان ذكر أيضا أنه جاء فى وصفه أنه كان « أزهر اللون » ، والأزهر هو الأبيض بصفرة خفيفة ، « والسمرة مستحسنة عند كثير من الناس ، وهو الغالب فى لون العرب » ، ويشير إلى ما حظى به السودان من استحسان ، ويقرر حقيقة نفسية ومشاهدة ، وهى أن « الحسن فى كل لون مستحسن » ولله القائل :

ان المليـح مليـح يحب فى كل لون

وقد اختلف الناس فى جعودة الشعر وسبوطته أيهما أحسن ؟ فذهب قوم إلى استحسان الجعودة ، وهى انقباض الشعر بعد انقباض ، وهى مما يستحسنه العرب ، وإليه ذهب الفقهاء ، حتى لو شرط البائع فى عبد كونه جعد الشعر وظهر سبط الشعر ردّ بذلك بخلاف العكس ، وذهب آخرون إلى استحسان السبوطة ، وهى استرسال الشعر وانبساطه من غير انكماش ، وأكثر ما يوجد ذلك فى الترك ومن فى معناهم . ثم الذاهبون إلى استحسان الجعودة يستحسنون التواء شعر الصدغ ، ويشبهونه بالواو تارة وبالعقرب أخرى .

ويتأكد استمداد المقاييس الجمالية من الوجه العربى حين يشير إلى سعة الجبهة ووضوح الجبين ، وبلج الحاجبين ، أى انقطاع شعرهما وعدم اتصالهما ، كما يستحسن الحور فى العينين ، وهو خلوص بياضهما ، وكذلك نجلهما : وهو سعتهما ، ومن هذه الصفة من تسمى « نجلاء » فى أيامنا ، والدعج ، وهو شدة سواد الحدقة ، والكحل ، وهو أن تسود مواضع الكحل من العين خلقة . أما الأنف العربى فهو أحسن الأنوف أيضا بهذه المقاييس الجمالية ، فيستحسن

(١) مطالع البدور جـ ١ ص ٢٤٦ – ٢٨٠ .
(٢) صبح الأعشى جـ ٢ ص ٤ – ١٣ .

فيه القنا ، وهو ارتفاع وسط الأنف قليلا عن طرفيه مع دقة فيه ، « وهو الغالب فى العرب » ، ويستحسن فيه الشمم أيضا ، وهو استواء قصبة الأنف وعلو أرنبته ... إلخ .

أما ما يخص به الرجال ويستحب فيهم فهو سعة الفم وغلظ الشفتين ، لأن ذلك – فى رأيهم – مما يدل على الشجاعة . وكذلك تستحب فيهم الخفة وقلة اللحم ، لأجل قوة النهضة . والمرأة على العكس فى كل ذلك . كما يستحسن فيها طول الشعر فى الرأس ، ودقة العظم ، وصغر القدم ، ونعومة الجسد ، وقلة شعر البدن .

أما الصفات النفسية فإن أصول أخلاق الرجال ترجع إلى أصلين لا يعد لهما شيء ، هما : العدل والشجاعة ، أما ما يستحب من المرأة فهو ما يذم فى الرجل ، وهما أصلان أيضا : الجبن والبخل ، « وذلك أن المرأة إذا جبنت كفت عن المساوىء خوفا على نفسها أو عرضها ، وإذا بخلت حفظت مال زوجها عن الضياع والإتلاف » . وإذن فإن هاتين الصفتين ليستا مرغوبتين لذاتهما ، بل لأثرهما فى علاقة المرأة بالرجل ، وبخاصة حين تكون زوجة . وهذا أمر هام جدا ، إذ يشغل موقعا واضحا فى التفكير العربى تجاه المرأة وتصور مكانها الاجتماعى ، فى حين أن الصفات المستحسنة فى الرجل لم يراع فيها علاقته بالمرأة كصفة أساسية .

وبعد .. فهذه جولة خاطفة فى بعض الدراسات الموسوعية ، لعلها لم تقدم أفكارا أصيلة عن الحب يمكن أن تضاف إلى ما كتبه من اهتموا بهذه العاطفة اهتماما مباشرا ، ولكنها – مع هذا – أعانت على تصور الحب فى واقعه الاجتماعى ومطالبه السلوكية ودواعيه وآثاره واحتياجاته البدنية .